مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب المجلد 12 العدد 2، 2015، ص ص 415-446

التدريج الصوتي القائم على الأفضلية في دراسات العلماء العرب
دراسة وصفية تاريخية

يحيى عبابنة *

الملخص

يهتم هذا البحث بفكرة التدريج الصوتي عند علماء العربية ابتداء من محاولة سيبويه في كتابه الذي يعدُ أقدم أثر منهجي عربي في موضوع اللغويات، إذ قسّم الأصوات التي تشكِّل النظام الصوتي للغة العربية، فقد قسم الأصوات الصحيحة إلى ثلاثة أقسام رأى أنّ القسم الأوّل منها هو ما يكوِّن الأصوات الصحيحة المعيارية للمستوى الفصيح الذي يعتدُ به في قراءة القرآن واستعمال الشعراء، وأما القسم الثاني فقد عدّه سيبويه فصيحاً ولكنه أقل وروداً في الاستعمال العربي الفصيح، وإن كان مقبولاً في قراءة القرآن والشعر، وأما القسم الثالث، فقد عدّه رديئاً لا يقبل في قراءة القرآن والشعر، وقد كشفت الدراسة عن أثر هذا التدريج في توليد الصيغ البديلة أو الاختيارية في اللغة.وتحاول هذه الدراسة أن تحلل معايير سيبويه وغيره من العلماء في التدريج الصوتي لمكوِّنات النظام الصوتي للغة العربية، وتستعمل المنهج الوصفي التحليلي والمنهج *المقارن في الوصول إلى النتائج.*

مهاد نظري

يعد كتاب سيبويه من أهم الكتب التي تقدّم لنا تدريجاً في الاستعمال الصوتي العربي، فقد قسم الأصوات إلى أصوات يُعْتَدُ بها في الاستعمال الفصيح الوارد عن العرب، وأصوات ليست كثيرة في لغة من يعتدُ بفصاحتهم من العرب الذين تُرْتَضى عربيَّتهم، وأصوات موجودة في لغة من لا تُرْتَضى عربيِّتُهُ.

وقد سار ابن جني في كتابه: سرّ صناعة الإعراب على التدريج نفسه، وإنِ اختلف عنه قليلاً في إدراج الأصوات تحت النوعين الأخيرين، واتَّفقَ معه في المكوِّنات الصوتيّة الفصيحة التي يعتدُ بها، وهذان النَّوعان الأخيران يمكن تمييزهما في ضوء علم الأصوات التاريخيّ إذا تمكنّا من تحديدهما مقارنة مع الاستعمال العام لبعض اللغات الساميَّة، ومكوِّنات النظام الفصيح للغة العربية

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2015.

* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

نفسها، والحكم عليها من ناحية التَّطور الصوتيّ بالقياس إلى الأصوات الفصيحة المعيارية، وأصوات اللغات الساميَّة.

مقدمة الدراسة:

فرضت التطورات التكنولوجية والرقمية المتسارعة التي يشهدها العالم على المؤسسات والمنظمات الرسمية وغير الرسمية، والربحية وغير الربحية، ضرورة مواكبة هذه التطورات ومتابعتها والاعتماد عليها في أداء مهامها الإدراية والاتصالية مع جماهيرها الداخلية والخارجية.

وتعتمد المؤسسات والمنظمات المختلفة على أجهزة ودوائر العلاقات العامة فيها لأداء مهامها الاتصالية التي تلعب دورا محوريا في العملية الإدارية فيها، ولذلك شهدت أجهزة العلاقات العامة تطورا وتغييرا في أدائها الاتصالي ووظيفتها بحكم هذه التطورات التكنولوجية والرقمية وأصبحت الوظيفة الاتصالية لهذه الأجهزة تتحول من الأسلوب التقليدي إلى الأسلوب الحديث الذي شهد تغييرا جذريا في مستويات الوظيفة الاتصالية وحجم الجمهور الذي يتعامل معه على الصعيد الداخلي (العاملين فيها) والخارجي، بالإضافة الى استخدام وسائل اتصال متطورة تكنولوجيا ورقميا توفرالقدرة للمنظمات والمؤسسات على بناء صورة ذهنية إيجابية أو منتجاتها أو دورها في خدمة المجتمعات.

مشكلة الدراسة وهدفها:

يندر أنْ يفضيَ المنهج الوصفيّ إلى تدريج استعمالي للأصوات في أيِّ لغة مدروسة، ولكنَّ اللغة العربية كانت قد خضعت لمعيار من معايير الأفضليَّة التصنيفية بين المكوِّنات اللهجية التي شاركت في ظواهر اللغة العربيَّة الفصحى، ومنها المكوّنات الصوتيَّة، فلمّا أقدم النحويُّون وأهل اللغة على تدريج الخارطة اللهجية للغة العربية، طبّقوا نوعاً من الأفضليَّة على المستويات اللغويَّة، فوجدوا أنَّ منها ما ينسجم مع الأفضليَّة القواعدية من الظواهر التركيبية والصرفية والصوتية أيضاً، ولذا، فقد جاء توصيف سيبويه، وابن جنّي من بعده، خاضعاً للأفضليَّة التي تمثِّل اعتدادَ العالِمَيْنِ ومَنْ تابعهما من علماء اللغة في أمر التدريج المقصود، فبعض هذه الأصوات فصيح، وبعضها أقلُّ فصاحةً، وبعضها لا يعتدُّ بفصاحته، علماً أنَّ الأصوات لا تكون فصيحة أو غير فصيحة ضمن المنهج الوصفيّ التحليليّ الذي يدرس هذه الأصوات، وستحاول هذه الدراسة أنْ تصلَ إلى تفسير يُوَضِّحُ السبب الذي دفع إلى الأحكام التي أطلقها سيبويه وابن جني من بعده ومَنْ سار على نهجهما من العلماء العرب، وما إذا كانت تستند إلى أفضليَّة صوتيَّة علميَّة، أو إلى اعتبارات تصنيفيَّة التزم بها علم الأصوات العربيّ ناتجة عن نظرة تصنيفيَّة استعماليَّة للقبائل العربيَّة

نفسها، وستحاول أيضاً الكشف عن سبب وجود هذه المكوِّنات ضمن التشكيل الصوتي للغة العربية مع وجود اعتبارات التصنيف.

معنى التدريج الصوتي

تحاول هذه الدراسة أن توضّح مسألة مهمة من مسائل الدرس الصوتي، تتعلّقُ بدراسة المستوى الصوتي في البيئة الاستعمالية للعربية، فقد جمع العلماء العربية واستمعوا إليها من مستعمليها الذين درُجوهم من حيث الفصاحة إلى درجات، فوجدوا أن الأمر ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الأصوات التي رأوا أنها تشمل النظام الفصيح المعياري المكوّن من ثمانية وعشرين صوتاً صحيحاً وستّ حركات تحكم وجودها قاعدة وصفية صارمة استعمالاً، وهي التي صارت مناط تعليم العربية لأبنائها والناطقين بغيرها فيما بعد، والأصوات الصحيحة التي وجودوا أنها موجودة عند الفصحاء ولكنها لم تدخل ضمن المستوى السابق، بل اكتفى النحاة ابتداء من سيبويه وأستاذه الخليل إلى أيامٍ قريبة بإدراجها ضمن مجموعة أخرى لم تعد قياسية في المستوى المعياري الاستعمالي، ولم تعد تحتلّ مساحة من الفكر التعليمي للغة للفئات المستهدفة، ولكن ما ورد من أداء لغوي يمثّلها لا يمكن التغاضي عنه، مما يعني أنه ولّد استعمالات لغوية ووحدات استعمالية تشتمل عليها، أي أنها ترد على ألسنة بعض الفصحاء في أداءات لها اعتبارها في الدرس الصوتي العربي، ولكننا نكتفي منها بمورد السماع، وحكمها القبول، وأما تعليمها فهو متوقّف على فئة العلماء وأصحاب الأداء التعليمي والعلمي، وقد انتهت من النظام الفصيح إلا مما حُفِظَ. وأما القسم الثالث، فهو صور من الأداء اللغوي المهم لمجموعة من الأصوات كما سيأتي، وهذه الصور لا ترد عن الفصحاء الذين ترتضى عربيتهم، ولكنها صور محفوظة عن بعض العرب.ولهذا التدريج إلى (المكوُنات الأساسية والمكوّنات الفصيحة غير القياسية والمكوّنات الفصيحة) أثر كبير جداً في دراسة تنوُّعِ الأداء والمكوِّن المعجمي المحفوظ بين دفتي معجمنا العربي، وهذا الأثر متمثِّل في إنتاج صيغ بديلة أو اختيارية (alternative forms) أسهمت في التوسع اللُغوي للمستوى البنائي على المستوى الصرفي، كانت مستعملة جنباً إلى جنب في البيئات اللغوية المقصودة.

ميدان الدراسة:

بدأ الدرس الصوتي مع بداية النحو الأولى، وبخاصة عند الخليل بن أحمد الفراهيدي وتلميذه سيبويه، غير أنّ العالم الأول (الخليل) لم يكن له كتاب يتّفق الباحثون على أنه كتابه ، كمعجم العين، ولكن سيبويه أودع علم الخليل في كتابه الشهير، ولم يختلف العلماء الذين جاءوا من بعده معه في هذه المسألة، ولما جاء ابن جني (ت 392هـ) أعاد فكرة التدريج الصوتي إلى واجهة الدرس الصوتي، وبعد ابن جني لم يعد العلماء يهتمون بهذا التدريج بسبب انحياز علوم

اللغة إلى المنهج التعليمي، ما عدا بعض الجهود التي بذلها علماء القراءات، بسبب تعرُّضهم إلى صور الأداء القرآني المختلفة، وفيما يأتي تفصيل للأصوات المدرّجة عند علماء العربية ممثّلة بما أورده سيبويه وابن جني وغيرهما مما هو وارد في الدراسة كابن يعيش وأبي حيان والأشموني، وما ورد من صور الأداء الخاضعة للتدريج في المعاجم العربية وكتب التغيُّر الصوتي:

أصناف الأصوات المدرّجة

لقد بدأ التدريج الصوتي مع أولى بواكير الدرس الصوتي العربي، إذ أورد سيبويه، وتابعه ابن جني، ثلاثة أصناف للأصوات الصحيحة متّبعاً الأفضلية الاستعمالية، زيادة على أقسام الأصوات الصائتة، وهذه الأقسام هي:

1- الأصوات المعيارية: نعني بقولنا الأصوات المعياريّة تلك الأصوات المعتمدة عند العلماء على أنها المكوِّنات الأصليّة التي تمثِّلُ النظام الصوتيّ العربيّ، وهي عند سيبويه ومن سار على نهجه تسعة وعشرون صوتاً، وقد رتبها العالمان وفقاً لمجموعات تعتمد المخرج في تجمعها، وهي: الهمزة والألف والهاء والعين والحاء والغين والخاء، والكاف والقاف، والضاد، والجيم والشين والياء واللام والراء، والنون والطاء والدال والتاء والصاد والزاي والسين، والظاء والذال والثاء، والفاء والباء والميم والواو[1].

والملاحظ على هذا التقسيم هو وجود الألف في المرتبة الثانية بعد الهمزة، وربما كان وضعها ها هنا ناتجاً عن نطقها مفردةً، وتكلُّف شبهها بالهمزة في حالة القطع، وإلا فإنّ الهمزة هي الألف، أو أن الألف الأخرى هي ألف المدّ، وحقُّها أن تكون مع الصوائت (الحركات) لا مع الصوامت.

كما أنّ هذا الترتيب لا يتناسب مع حالة التَّطوُّر التي تعرّضت لها بعض الأصوات (الحروف)، كما في إدراج الضاد بعد القاف، وحقُّها الترتيبي وفقاً لنطقنا إياها اليوم أن تكون مع التاء والدال، وأما القاف التي يتحدّث عنها سيبويه وابن جني في هذا الترتيب، فهي القاف المجهورة، وليست هي القاف المهموسة التي اتّخذتها الفصحى مكوِّناً من مكوِّناتها بعد زمان هذا الوصف[2].

ولا تريد هذه الدراسة أن تسجِّل ملاحظات كثيرة عن هذه الأصوات في هذا الموضع، ولكنها ستفيد من الوصف الصوتيّ لهذه الأصوات التي أطلقنا عليها مصطلح الأصوات المعياريَّة في أثناء الحكم على التدريج الصوتيِّ في الدراسات العربيَّة، ولكنني أشير هنا إلى أنّ علم الأصوات العربيّ قد نظر إلى هذه المكوّنات نظرة الأصل، وأما باقي الأداءات فهي فروع من وجهة نظره.

ويقتضي من هذه الدراسة الإشارة إلى أنَّها لن تكون معنية بأشكال التلوين الصوتي (الألوفوني) الواردة في دراسات العلماء القدماء على أنَّها من أصناف التَّغَيُّر الصوتيّ السياقيّ، أو التركيبيّ، فتلك مسألة لا تخضع لمسألة التدريج الصوتي القائم على الأفضلية القواعدية، على الرغم من معرفة علمائنا السابقين باختيارية القانون التركيبي السياقي الذي حكم عملية الإبدال الصوتي.

ونشير أيضاً إلى أنّ هذا القسم المعياري هو الذي يحتلُّ الدرجة الأولى في احترام البنية الصوتية للغة العربيَّة، دون أن نلقي بالاً إلى مسألة التطور الصوتي أو التلوين الألوفوني الذي طرأ عليها، فقد ظلّ هذا النوع هو المعيار العلمي للتصنيف الصوتي أو وصف الأصوات منذ أيام سيبويه، إلى أن كشف علم الأصوات الحديث وجود اختلاف بين وصف أجزائه ومكوّناته، ووصف المحدثين الذين اعتمدوا على أجهزة دقيقة لا مجال للخطأ فيها من حيث تحديد الجهر والهمس أو الشدّة والرّخاوة.

وقد ظنّ بعض المحدثين أول وهلة أنهم كشفوا عيوباً وزللاً في وصف الأصوات في كتاب سيبويه وجهود ابن جني الصوتية، ولكنهم لم يلبثوا أن تراجعوا عن وصف أحكام سيبويه بالقصور فيما يخص الوصف الصوتي عندما تنبهوا إلى مسألة التطور وتدخُّل قوانين التطور الصوتي، التي أدّت عملها إلى أن غيرت بعض صفات الصوت، فأحالوا كثيرا من الاختلافات إلى هذه المسألة[3].

2- الفروع المستحسنة: لقد عدَّ سيبويه وابن جني هذا الصنف من الأصوات مستحسناً مقبولاً في معيار الفصاحة من قبيل نظرتهما إلى الأصالة والفرعيَّة، فالأصوات التسعة والعشرون التي ذكراها أولاً هي مكوِّنات النظام الصوتيِّ للصوامت في اللغة العربية (إذا أخذنا ازدواج الوصف للألف والواو والياء)، وهي أصول العملية الصوتية، وأمّا الأصوات الستة التي تليها، فهي فروع عليها، ولكنها مع هذه الفرعية أصوات مقبولة يُؤخذ بها عن أصحابها إذا تكلموا بها، ويمكن قبولها في أرقى أشكال الأداء الصوتي، وهو الأداء القرآني، وما يليه من أصناف الأداء العالي كالشعر[4].

وهذه الأصوات الفرعيَّة هي: النون الخفيفة، والهمزة التي بين بين، والألف التي تمال إمالة شديدة، والشين التي كالجيم، والصاد التي كالزاي، وألف التفخيم بلغة أهل الحجاز في نطقهم لكلمات مثل: الصلاة (الصلوة) والزكاة (الزكوة)، والحياة (الحيوة)، وقد حدّدها ابن جني بأنها الألف التي نجدها بين الألف والواو نحو قولهم: سُلامُ عليك، وقُام زيدُ، وعلى هذا كتبوا الأنماط السابقة بالواو؛ لأنَّ الألف مالت نحو الواو[5].

والحقيقة التي يجب أن ندركها هي أنَّه علينا ألا نركن إلى الشكل الكتابي الوارد في العبارات التي أوردها ابن جني، وذلك أنَّ إمكانيات الخطِّ العربيِّ لا تسمح بكتابة هذه الألف كتابة صحيحة معبِّرة عن الوضع الصوتيِّ؛ لأنَّ هذا الخط لم يضع رموزاً لهذه القيمة الصوتية، بل كان يعتمد على الجانب الوصفيِّ للظاهرة، فقالوا: إنَّها الألف التي بين الألف والواو.

- مكوّنات الفروع المستحسنة

يتألّف هذا القسم من ستة أصوات (أحرف)، وهي:

*** النون الخفيفة أو الخفيَّة:** لعلَّهُ من المستحسن أن تُواجه هذه النّون بالنّون القويَّة إذا سَمَّيناها الخفيفة، ولكن العلماء لم يفعلوا ولم يذكروا مصطلح النون القوية، بل أطلق عليها سيبويه مصطلح النون الخفيفة(6)، وهو المصطلح نفسه الذي أورده ابن جني زيادة على مصطلح النون الخفيّة(7)؛ لأنّ مسألة القوة والضعف في هذه الحالة مسألة اعتبارية قد لا تكون علمية، ولهذا، فإنَّ وصف النون المعيارية التي يشتمل عليها القسم الأوّل أمر قد يسهم في توضيح معنى النون الخفيفة الذي يمكن أن يطلق عليها النون الخفية كما سنلاحظ.

النون صوت لثويٌّ أسنانيٌّ مجهور، وفي أثناء إنتاجه يعتمد طرف اللسان على أصول الأسنان العليا مع اللثة، وينخفض الحنك اللَّيِّنُ، فيتمكَّن الهواء الخارج من الرئتين من المرور عن طريق الأنف(8).

وقد فرّق ابن جني بين النُون الساكنة (المظهرة) والنون الخفية تفريقاً إجرائياً يحدِّدُ مخرج النون الأخيرة بأنَّه إذا أمسك أحدنا بأنفه، ثم نطق بها، لوجدها مختلةً، وهو يقصد بالاختلال عدم القدرة على نطقها، وأما النون الساكنة، فهي صوت أنفي له بعض الغنة من الأنف(9)، ولو حاولنا إغلاق الأنف قي أثناء نطقنا بها، فإنها ستختلُّ وتتحوَّلُ إلى صوت آخر أقرب إلى الدّال، وهو ما يحدث في حالات الزكام الشديدة عندما يغلق مجرى الأنف.

هذه إذن هي النون التي تقف في مقابل النون الخفية، ولهذا؛ فإنَّه لا بدَّ أن تكون النون قد ضعفت؛ لأنَّها فقدت بعض الصفات، ولا يمكن أن نتصوَّر أنَّها فقدت الصفة الخيشوميَّة، لأنَّها في هذه الحالة ستتحوّل إلى دال، ومن هنا، فإن النون قد فقدت المخرج اللثوي الأسناني، فتحوّلت إلى صوت خيشومي، وهو ما نطلق عليه مصطلح الغُنَّة، أي أنّ النون الخفية ما هي إلا الغنة نفسها، وتختلف عن النون المُظْهَرة في أننا لو حاولنا إغلاق الأنف عند النطق بها، فإنَّها لن تتحوّل إلى أيِّ صوت آخر كما هو الحال في المُظْهَرة.

والغنة صوت خيشوميّ لا غير، ويتكون في الميم والنون؛ لأنهما الصوتان الأنفيِان، ولا يوجد غيرهما في هذا الباب، وهي تحول هذين الصوتين عن مخرجهما الأصلي والانحياز إلى المخرج الأنفي فقط، وقد أطلق ابن الجزري على النون العادية اسم النون المظهرة[10]، ويقابل هذا المصطلح الواضح مصطلح النون الخفية الذي استعمله ابن جني مطلقاً إياه على النون الخفيفة.

وقد أُخِذَ مصطلح الغنَّة في الأصل من معناه اللغوي؛ لأنّ الغنة صوت من الخيشوم، أو هو صوت فيه ترخيم نحو الخياشيم[11].

وتمثيل صورة هذه النون التي أوردها العلماء ما نجده في اللغة الإنجليزية من نطقها للاحقة (ing)، وأما مبعث فرعيتها، فإنّها من الأداءات الخاصة التي لا ترد صورتها مرسومة في الخط العربي، ولا ترد في الإبداع اللغويّ المعياريّ الملتزم بمكوّنات النظام الصوتيّ المعياريّ، ولكنَّها ترد في أداءات مخصوصة كالقرآن الكريم وبعض الأشعار، وأما الأداء اللغوي العادي، فيلتزم بالنون المُظهرة من حيث الرسم والأداء، ولذا فقد عدُّوا النون الخفيَّة فرعاً على النُّون المُظْهرة.

والحقيقة الماثلة أنّ النون الخيشوميَّة مكوِّن آخر من مكوِّنات النِّظام الصوتي، وليست فرعاً على المُظهرة، ولكن العلماء عدوها فرعاً من قبيل أنه يجوز في الأداء العادي أن تنطق مُظهرة، ولكن لا يجوز نطق المظهرة خفيّة، ولعلّ الأمر متعلِّق في نظرتهم إلى هذه الغنة بتعطيل المخرج، إذ ذهبوا إلى أن ما حدث هو تعطيل لمخرج المظهرة، مما دفع بالهواء إلى اتخاذ سبيله الأنفي.

* **همزة بين بين:** لقد حمل سيبويه هذه (الهمزة) على قضية التخفيف، فالهمزة إذا خُفِّفت تحوّلت إلى همزة (بين بين)، فكلُّ همزة مفتوحة وقبلها فتحة، فإنّها إذا أُريدَ تخفيفها تصبح بين الهمزة والألف الساكنة، وتكون بزنتها محقّقةً، غير أنها تخفى قليلاً، بسبب إضعاف الهمزة وعدم إتمامها لأنها قُرِّبت من الألف وذلك مثل (سَأَلَ) على لغة أهل الحجاز، إذا لم تُحَقّق كما يحققها بنو تميم، وإذا كانت الهمزة مكسورة مسبوقة بفتحة، صارت بين الفتحة والياء الساكنة وفقاً لتعبير سيبويه، أي: الياء المدية، وإذا كانت الهمزة مضمومة مسبوقة بفتحة صارت بين الفتحة والواو الساكنة (المدّية)، وقد جُعِلت هذه الأوضاع همزة (بين بين) ولم تُجْعَل ألفات ولا ياءات ولا واوات؛ لأنَّ أصلها الهمز فكره العرب أن يخففوا على غير هذا الباب فتتحوّل الهمزات عن بابها[12]، والأمر أيضا كذلك إذا كانت الهمزة مكسورة وقبلها كسرة أو ضمّة، نحو: من عِنْدِ إبلِك، ومرتعُ إبلِك، وإذا كانت الهمزة مضمومة وقبلها ضمة أو كسرة فإنها تصبح همزة بين بين، مثل: درهمُ أُختِكَ ومن عند أُمِّكَ[13]، وسنفصّل همزات بين بين لاحقاً.

والحقيقة أنّ مسألة تعرُّض الهمزة للتخفيف مسألة فيها نظر، فكأن الأمر يوحي بعد تفصيل سيبويه هذا، بأنّ الهمزة تعرّضت لعملية تحوّلٍ أبقتها على تحقيقها، ولكننا نرى الأمر على غير

هذا، بل الذي حدث فيها هو حذف الهمزة المسبوقة بحركة مع بقاء حركتها، إذ شرطها أن تكون متحركة مسبوقة بحركة، فتلتقي عند ذلك حركتان: حركة الهمزة مع الحركة السابقة عليها، وهو أمر غير متاح من وجهة نظر العلماء، وهو أمر صحيح إذا لم تحدث حالة وقفٍ سريعة يمكن أنْ تسمى الحريكة أو الوقيفة أو السكتة السريعة[14] وهي الحالة الوحيدة التي تجيز التقاء الحركة مع الحركة في العربية، ولولا هذه (الوقيفة) ما سمح النظام الصوتي بها، وَلَمَّا سمعوا هذا الوضع، اعتقدوا بوجود همزة (هميزة) هي بين الهمزة والألف أو الواو أو الياء المدِّيَّات، وفيما يأتي تفصيل صوتي لأوضاع (همزة بين بين):

إذا سقطت الهمزة المفتوحة المسبوقة بالفتحة ومثالها همزة (سَأَلَ): sa>ala، مع وجود الوقيفة التي تمنع من التقاء الحركتين مباشرة Hiatus فإن الوضع سيصبح sa*ala وتلتقي فيه الفتحة مع الفتحة مع وجود الفاصل الوقفي بينهما، فَحَكَمَ سيبويه وابن جني وغيرهما على هذا الوضع بأنه هميزة بين الهمزة والألف؛ لأن أقرب الأصوات الممثّلة لها هو الألف.

وأما إذا سقطت الهمزة المضمومة المسبوقة بالفتحة، في مثل عبارة: أكرمَ أمَّه >akrama>ummahu، وبقيت ضمّتها، وهي مسبوقة بالفتحة، فستلتقي حركة الفتحة مع الضمة، وهو وضع يقتضي وجود الوقيفة:>akrama*ummahu.

وأمّا إذا سقطت الهمزة المكسورة المسبوقة بالفتحة مثل كلمة (سَئِمَ) sa>ima، مع بقاء كسرتها، فإنّها تلتقي مع الفتحة السابقة عليها، ولا بدَّ أيضاً من الوقيفة نفسها sa*ima.

وأمّا إذا سقطت الهمزة المضمومة المسبوقة بضمة وبقيت حركتها مع الوقيفة المذكورة، كما في عبارة: (درهمُ أُمِّك) dirhamu>ummika، فسيصبح النمط dirhamu*ummika.

وإذا سقطت الهمزة المفتوحة المسبوقة بالضمة مع بقاء حركتها والوقيفة، في نحو: (كلام أبيك): kalāmu>abīka، فسيصبح النمط kalāmu*abīka.

وإذا سقطت الهمزة المكسورة المسبوقة بالضمة، وبقيت حركتها، وحدثت الوقيفة، كما في (مرتعُ إبِلك) marta<u >ibilika فستلتقي الضمة مع الكسرة marta<u*ibilika.

وإذا سقطت الهمزة المكسورة المسبوقة بكسرة مع الوقيفة أيضاً، في مثل (من عندِ إبلِكَ) min <indi>ibilika وسقطت الهمزة مع بقاء حركتها، فسيصبح الوضع على min <indi*ibilika.

وإذا سقطت الهمزة المحرَّكَةُ بالفتحة، وكان ما قبلها مكسوراً، فإنَّ الكسرة سوف تلتقي مع الفتحة دون فاصل ما عدا هذه الوقيفة، ومن ذلك كلمة مِئَر mi>ar التي تتحوّل إلى mi*ar بعد سقوط الهمزة وبقاء حركتها.

وآخر هذه الأوضاع التي تحتملها اللغة في واقعها الاستعمالي هو سقوط الهمزة المضمومة وبقاء حركتها، إذا كانت مسبوقة بكسرة، نحو: يُقرِئُكَ: yuqri>uka فسيكون وضعها الناتج عنها هو التقاء الكسرة مع الضمة، ولا بدَّ من الوقيفة عندها للفصل بينهما: yuqri*uka.

وإذا لم تستعمل هذه الوقيفة أو الوقفة القصيرة، فإن العملية الصوتية لا بدَّ أن تتخذَ اتجاهاً آخر وهو عملية انزلاق شبه حركة مناسبة للضمة أو الكسرة (الواو أو الياء)، أو أن تحدثَ عمليَّة حذف تسقط فيها إحدى الحركتين، ويشارُ في هذا المقام إلى أنّ همزة (بين بين) قد ظلّت ممثلة في النظام الفصيح، لاسيما في قراءات القرآن الكريم، ولكنّها في النهاية آلت إلى التقلُّص وأصبحت جزءاً من العملية الصوتية التي لا نجدها إلا في وصف المتقدِّمين من العلماء.

وينبغي الإشارة ها هنا إلى أنّ ما قاله علماء السلف بخصوص وجود همزة تسمى (بين بين) ينبغي أن يُحْمَلَ على ذوق العمليّة التصويتيّة، إذ ليس ثمة همزة، ولكنّ توالي الحركتين مع وجود هذه الوقفة (الوقيفة) هو الذي أوحى بوجود الهمزة (الصغيرة) والحقيقة أنَّ إظهار الحركة الثانية (بعد الوقفة) هو الذي دفع إلى هذا التصنيف[15].

وعلى هذا، فإنَّ هذه الهمزة ليست جزءاً من المكوّنات المعياريَّة للأصوات العربيَّة، وليست تدريجاً صوتياً لوحدة صوتيَّة صغرى أصلية كانت أو غير أصليَّة (متحوِّلة)، ولكنها حالة ناتجة عن حذف الهمزة المتحرِّكة المسبوقة بحركة، وكان من الممكن أن تُدْرَجَ ضمن وظائف الأصوات لا مع الأصوات التي تكوِّن النِّظام الصوتيَّ العربيَّ والأصوات التي تقع بين الأصوات المعيارية والأصوات غير المستحسنة.

* **الألف الممالة إمالة شديدة:** قد يوحي هذا المصطلح بظاهرةٍ غير ظاهرة الإمالة، فالإمالة معروفة للجميع، وأما وصفها بأنها شديدة، فقد يذهب بنا هذا إلى الإضجاع وتحويل الياء التي تشكل الياء المسبوقة بالفتحة جزءاً منه، وهو الذي يسميه بعضهم (الحركة المزدوجة)، إلى حركة الكسر الطويلة الممالة:ē< ay

وهو أمرٌ عاديٌّ، ولكن سيبويه آثر وصفها بالشديدة، ليميِّز بينها وبين الإمالة القصيرة، وهي إمالة الفتحة القصيرة الخالصة إلى الحركة المجهولة (e)، فأمّا إمالة الألف، فنجد أنها نوعان في العربيَّة، يمكن أنْ نطلق على الأول منها الإمالة التاريخيَّة التي تدرَّجت بالأنماط المعتلَّةِ العين واللام

من مرحلة الصحة إلى مرحلة الفتح الخالص، وأعتقد أنه ليس ثمة إمالة شديدة وأخرى غير شديدة في هذا السِّياقِ، لأنّ وصفها بالشديدة قد يوصلنا إلى مفهوم آخر للمصطلح، وهو مفهوم الإضجاع الذي لا يكتفي بالإمالة الناتجة عن انكماش الوضع الصوتي (ay) إلى (ē). ولكنه يصل بهذا الوضع إلى حركة الكسرة الطويلة الخالصة (ī)، وهو أمر نجد نظائره في بعض اللهجات المعاصرة كما في بعض لهجات منطقة جنوبي الكرك في قرى النعيمات وقرية الطيبة الذي يقولون في (زَيْت) مثلاً: zīt، بهذه الكسرة.

وقد يمكننا أن نقول إنَّ الصوتَ الموصوفُ بالإمالة الصوتيَّة الشديدة ناتجُ عن عمليات وظيفيَّة فنولوجيَّة متعددة، وهي انكماش الوضع الصوتي المذكور، ثم تعرّض الصوت الجديد إلى إضجاع، ولكنّ سيبويه لم يوضّح معنى الإمالة الشديدة، ولذا، فيمكن أنْ نجتهدَ في أنَّ هذا التحوّل التاريخي قد حدث على النَّحو الآتي:ī > ē > ay

والذي يؤيِّد هذا أنَّ الوضع الصوتي (ay) الناتج عن تجاور الفتحة مع الياء لا يمكن أنْ يتحوَّلَ إلى الكسرة الطويلة الخالصة، إذ لا قانون يحكم هذا التحوُّل، بل يتحوّل إلى الكسرة الطويلة الممالة، والقوانين الصوتيَّة والواقع الاستعمالي يؤيِّدان هذا التحوُّل، إذ جاءت شواهدُ الإمالة اليائيَّة كثيرة جداً في القراءات والأداء اللغوي العادي[16]، مفسرة بالانكماش، وهذه الحركة الناتجة (ē) يمكن أن تتحوّل إلى (ī)، وهي الكسرة الطويلة الخالصة، وقد ذهب العلماء إلى أن الإمالة فرع على الفتح، في حين يذهب علم الأصوات إلى أن الإمالة تمثل المرحلة الثالثة من مراحل تطور الأنماط المعتلة وأما الفتح فيمثِّل المرحلة الرابعة[17].

وأما النوع الثاني، فهو ناتج عن تعميم أثر القانون، فإذا كانت اللغة في بعض بيئاتها الاستعمالية قد خضعت لقانون تطور الأنماط المعتلة التاريخي، فإنّ أثره قد عُمِّمَ على تلك الأنماط التي تحتوي على الألف ضمن مكوِّناتها البنائية دون أن تكون هذه الألف ناتجة عن تطور النمط نفسه من حيث الصحة والاعتلال، كما في الإمالة الموجودة في بعض الأداءات القرآنية، ففي قوله تعالى: "وسارعوا إلى مغفرة من ربِّكم"[18]، أمال الدوري في رواية له عن الكسائي: سارعوا sēri<ū موافقة لكسرة السين[19]، على الرغم من أنّ الألف المدية هنا هي ألف (فاعلَ) وليست ناتجة عن الياء، وهي الألف التي مثَّل لها ابن جني بإمالة (خاتم وعالم)[20].

وعلى هذا، فإن الألف الممالة إمالة شديدة ليست صوتاً أصلياً، أو فونيماً مستقلاً، وإنما هو وضع صوتيٌّ ناتج عن عدد من العمليات الصوتية التاريخية المنشأ، سواء أكانت الإمالة ناتجة عن انكماش الوضع الصوتي (ay) إلى (ē)، أم إضجاع (ē) إلى (ī).

* **ألف التفخيم:** لم يترك سيبويه هذه الألف دون توضيح أو تمثيل لغرابة المصطلح، فذكر أنها الألف التي ينطقها أهل الحجاز في مثل: الصلاة والزكاة والحياة، وهي التي نجدها مرسومة في الخط القرآني في هذه الألفاظ: الصلوة والزكوة والحيوة[21]، وقد وردت هذه الأنماط في رسم المصحف في أربع كلمات، منها هذه الكلمات، وكلمة (الربوا)، وقد أُطْلِق عليها اسم الأصول، وجاء الأمر في غيرها من الكلمات، مثل: (الغدوة) و(مشكوة)، و(والنجوة) و(منوة)، وإذا أضيفت كلمتا (الصلوة والزكوة) إلى ضمير، فإنها ترسم ألفاً خالصة دون واو، وقد فُسِّرت هذه الألف كتابياً وصوتياً عند العلماء تفسيرين: الأول منهما استعمالي يخضع لمعيار الاستعمال اللغوي، فهذه الكلمات مكتوبة على مذهب أهل الحجاز في التفخيم، وثانيهما تفسير تحليلي صوتي، وهو أنَّ هذه الكتابة تخضع لاعتبار يتعلق بالأصل؛ لأنَّ الأصل في هذه الألف هو الواو[22].

وقد زاد ابن جني هذه الألف توضيحاً عندما ذكر أنها التي تقع بين الألف والواو نحو قولهم (سَلُامٌ عليك) (salōmun)، (وقُام زيدٌ) (qōma)، وأنه على هذا كتبوا الصلوة والزكوة والحيوة بالواو؛ لأنَّ الألف مالت نحو الواو[23].

وإذا أخذنا بهذا التوجيه الذي قدّمه ابن جني، فإن تمثيله بـ(قام) يعني أن الأمر تاريخي وصل بالنمط إلى مرحلة الإمالة الواوية (المتطوّرة عن الوضع الصوتي aw الذي ينكمش إلى ō)، لاسيما وأنّه وضح ذلك بمقابلته للإمالة اليائيَّة، كما أنَّهُ أورد نمطاً يثبت النوع الثاني من الإمالة الواويَّة الذي نتج بسبب تعميم أثر القانون، من أجل طرد الباب على وتيرة واحدة وتوحيد علامات اللغة، وهو salōmun، إذ إنَّ ألفه ليست متغيرةً عن الواو؛ لأنَّه من الجذر (سلم) ولا أثر للاعتلال فيه.

ومهما يكن من أمر، فإنّ ألف التفخيم ليست صوتاً فرعيّاً، بل هي وضع صوتيٌ ناتجٌ عن عمليات صوتيَّة تاريخيَّة تتعلَّق بعمليَّة الإمالة الناتجة إما عن تطوُّر الوضع الصوتيّ (aw) الذي ينكمش إلى (ō) في المرحلة الثالثة من مراحل تطوُّر الأنماط المعتلة[24]، ولذا، فإنَّ هذه الدراسة لا ترى أنه يشكّل صوتاً مستقلاً، بل هو تطور لأوضاع صوتيَّة، مما يبعده عن المكوّنات الفرعيَّة؛ لأنه ناتج عن عمليات وظيفيَّة.

* **الشين التي كالجيم:** من العسير أنْ نصف هذا الصوت أو أنْ نكشف عن فرعيته إلا إذا نظرنا إلى العمليَّة الصوتيَّة العكسيَّة، وهي (الجيم التي كالشين)، والصوت الأخير موجود ضمن مكوِّنات اللغة، ولكنه مُدْرجٌ عند سيبويه وابن جني ضمن القسم الثالث من تدريجهم الأصوات اللغوية، وهو الأصوات غير المستحسنة، وذلك لأننا لا نستطيع كشف القانون اللغوي الذي أدى إلى تحوُّل

الشين المهموسة إلى شين مجهورة قريبة من الجيم شديدة التعطيش ، ولكننا نملك القدرة على تفسير تحوّل الجيم إلى شين مجهورة كما سيأتي في القسم الثالث.

ومع هذا يمكن أن نشير إلى أنّ اتفاق سيبويه وابن جني وعلماء السلف على وجود الصوتين: الجيم التي كالشين والشين التي كالجيم أمر يكفي للدلالة على وجودهما في النظام الصوتي العربي[25]، ولكن ما نود الإشارة إليه هو أنّ سيبويه وابن جني لم يشيرا إلى أيّ مثال على استعمالها ضمن بنية معينة، وهو ما كان سيسعفنا في الكشف عن قانون التطور التاريخي الذي أدى إلى وجود هذا الصوت (الفرعي)، وسبب عدِّه من الأصوات المستحسنة.

وسنرجئ الحديث عن هذا الصوت إلى حين الحديث عن الصوت الآخر (الجيم التي كالشين) في الصنف الأخير من أصناف المكوّنات الصوتيّة، ولكنّ الدراسة تشير هنا إلى أنّ الاهتداء إلى سبب تصنيف هذا الصوت ضمن الأصوات المستحسنة وتصنيف نظيره ضمن الأصوات غير المستحسنة في ظلّ عدم وجود أمثلة عليها أمر عسير على القبول.

* **الصاد التي كالزاي:** لا يعني هذا المصطلح تحوُّل فونيم الصاد إلى فونيم الزاي تماماً، فلذلك مصطلح آخر وهو إبدال الصاد زاياً أو إبدال الزاي صاداً (التبادل بينهما)، وأما هذا الأمر، فقد أطلق على هذا الصوت مصطلح الإشمام الذي يعني اكتساب صفة الجهر للصاد دون التخلي عن التفخيم فيها، وقد وردت أمثلة على هذا الصوت ضمن قراءات القرآن المعتمدة، ففي قوله تعالى في فاتحة القرآن: "اهدنا الصراط المستقيم"[26]، قرأ حمزة من طريق خلف وخلّاد والمطوِّعي، وتروى عن حمزة الدوري فيما كان فيه لام التعريف، وبها قرأ أبو عمرو بن العلاء وهارون الأعور والعريان عن أبي سفيان وخلف: الزراط بإشمام الصاد زاياً[27].

وأوضح ابن جني هذا الصوت إيضاحاً لا يترك للتأويل سبيلاً، فذكر أنها التي يقلُّ همسها قليلاً، مع حدوث ضربٍ من الجهر فيها؛ لمضارعتها الزاي، وذلك نحو: يزْدُرُ في (يَصْدُر) بإشمام فيها وفي أمثالها من الكلمات التي تكون الصاد فيها ساكنة، إذ لا تحدث هذه المضارعة إذا كانت الصاد متحركة[28].

لقد انتهى هذا الصوت من المكوّنات المعيارية المعتمدة في تشكيل البنية الصوتية للغة العربية، أي أنها ليست مدرجة ضمن التشكيل الصوتي الذي أورده العلماء ضمن ثمانية وعشرين صوتاً (أو تسعة وعشرين حسب بعض الآراء)، ولكنه ظلّ ضمن الأصوات التي تعتمد في الأداء اللغوي للتراكيب الصرفية المعتمدة عند علماء اللغة عند وصفهم لأداءات معينة مروية رواية شفهية صحيحة موثوقة؛ لأنه اتخذ سمة لهجية، إذ ظل العلماء ينظرون إليه ضمن نظرتهم إلى التباين اللهجي؛ لأنّ نظام العربية الفصحى المكوّن من عدد محدّد من الأصوات، لم يشتمل على

هذا الصوت، ولهذا نظر إليه سيبويه وابن جني وعلماء السلف قاطبة على أنَّه فونيم جديد مختلف عن ذلك الذي اعتمد في النظام المعياري لمكوّنات النظام الصوتي العربي، ولذلك لم يرد له رمز كتابي، فقد توقّف العلماء عند المرويّ من مظاهره، ونحن ننظر إليه على أنَّه تلوين صوتي (ألوفوني) ناتج عن التَّغَيُّر الصوتيّ التاريخيّ، أو التغيُّر التركيبيّ الذي يمكن أن يفسِّر اكتساب صوت الصاد صفة الجهر من صوت الراء التي تليها.

وعلى هذا الذي ذكرناه، فإنَّه يمكن القول إنَّ أغلب هذه الأصوات الستة التي وُصِفَت بأنها مستحسنة ليست أصواتاً مستقلة، بل هي أصوات ناتجة عن عمليات صوتيَّة يمكن أن توصف بالتاريخيَّة، نتج بعضها عن تحوُّل تاريخيّ بسبب تقارب المخارج أو التأثُّر السياقيّ كما في صوتي: الشين التي كالجيم، فيما نتج بعضها الآخر عن أوضاع صوتية وظيفية أدّت إليها طبيعة المجاورة الصوتية بين الحركات وأشباه الحركات، وهي الأوضاع التي تسمى (الحركات المزدوجة) كالألف الممالة إمالة شديدة وألف التفخيم، أو سقوط الهمزة المتحرِّكة المسبوقة بحركة مع بقاء حركتها، مع وجود سكتة قصيرة جداً أو وُقيفة، ولا تستثني الدراسة منها سوى النون الخفيفة التي ربما أمكننا أن نعدها صوتاً فرعياً مختلفاً عن النون الظاهرة، وإن كان يمكن النظر إليه على أنَّه صوتٌ ناتجٌ عن فقدان الصفة اللثويَّة من النون الأصلية، مما يجعله صوتاً فرعياً أيضاً.

3- **مكوِّنات الفروع غير المستحسنة:** كان سيبويه أول من أشار إلى هذا الصنف من الأصوات التي صنّفها ضمن الأصوات غير المستحسنة وغير الكثيرة في لغة مَنْ تُرْتضى عربيَّتُهُ، وهذا يشير إلى وجودها في المكوِّنات الصوتية لهؤلاء ولكنها قليلة أو نادرة، كما أنها لا تحقق درجة الأفضلية التي تحقِّقها أصوات الفئة الأولى التي أطلقنا عليها مصطلح الأصوات المعيارية، كما لا تصل إلى درجة المقبولية التي حققتها مكوّنات الأصوات الستة من الفئة الثانية (الأصوات المستحسنة)، وقد أورد ثمانية أصوات جعل معياره في تدريجها الاستعمال والفصاحة، إذ لا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر، وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشِّين، والضَّاد الضعيفة، والصَّاد التي كالسِّين، والطَّاء التي كالتَّاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالفاء[29]، ولم يختلف ابن جني عن سيبويه من حيث المبدأ ولكنه كان أكثر تشدّداً حين ذكر أنّها لا تُقبَلُ ولا يؤخذُ بها في القرآن ولا في الشعر، وإذا كان سيبويه قد وصفها بأنها لا تكون كثيرة في لغة مَن تُرْتضى عربيته، فإن ابن جني قد حدّد استعمالها بأنها لا تكاد توجد إلا في لغة ضعيفة مرذولة غير متقبّلة[30]، وهو من وجهة نظرنا معيار استعمالي لم يقصد ابن جني من ورائه إلى ذمِّها وذمِّ أصحابها.

1- **الكاف التي بين الجيم والكاف:** الحديث عن أوجه شبه بين الكاف والجيم وهما بالوصف الذي أورده علم الأصوات، لا يفيد في رسم هذا الفرع من الأصوات، فالجيم هو الصوت المركّب

الوحيد في المستوى الفصيح للغة العربية، وهو مركَّبٌ من الدال والشين المجهورة، ويعود السبب في هذا (التركيب) إلى تدخّل قانون الأصوات الحنكية الذي حوّله من صوت مفردٍ شبيه بالكاف في المخرج وأغلب الصفات (ما عدا صفة الجهر) فالكاف صوت مهموس، وأما الجيم المفردة، فصوت مجهور، ومخرجهما واحد، وهو مخرج أقصى الحنك، وأما الجيم المركّبة، فصوت مكوّن من صوتين ينطقان على أنهما وحدة صوتية واحدة[31]، وهذا الصوت المركّب لا يمكن أن يحدث بينه وبين الكاف أي صورة من صور التحوُّل، ولذا فإن هذه الدراسة ترى أن سيبويه يتحدّث عن كافٍ مركَّبة أخرى، وهي الكاف الناتجة عن القانون نفسه، أي: قانون الأصوات الحنكية، فإذا كانت الجيم المفردة (الأقصى حنكية)، تتحوَّلُ إلى الجيم المركّبة المكوّنة من الدال والشين المجهورتين[32]، فإن الكاف الأقصى حنكية تتحوّل بفعل القانون نفسه (قانون الأصوات الحنكية) إلى صوت مركّب، ولأنّ الكاف تفترق عن الجيم المفردة في صفة الجهر، فهي مهموسة، فإنّها ستتحوّل إلى النظير المهموس للدال، وهو التاء، والنظير المهموس للشين المجهورة، وهو الشين نفسها، وهو ناتج عن عملية التغوير نفسها palatalization[33]،ومن هنا يمكننا الحكم على الكاف التي بين الجيم والكاف، وهي هذا الصوت المركّب، وقد أطلقت الدراسات العربية على هذا الأمر اسم (الكشكشة)، وأما أن تكون الكاف المفردة شبيهة بالجيم، وهو الصوت المركّب، فإنّ هذا الأمر لن يكون مفسَّراً.

ومن الجدير بالذكر أنّ العربية هي اللغة الوحيدة بين أخواتها من اللغات السامية هي التي وصلت إلى تطبيق قانون الأصوات الحنكية على الكاف في بعض مستوياتها الاستعمالية اللهجية[34]، فلا نجد ظاهرة الكشكشة إلا فيها، وإذا وجدت بعض الأمثلة في الحبشية الجعزية Ge<ez فإنها تكون مستعارة من لغات أخرى من خارج المجموعة السامية.

والحقيقة التي لا مراء فيها أنّ ضمّ هذا الصوت الذي يقع بين الكاف والجيم وأصله الكاف إلى الأصوات غير المستحسنة له ما يسوِّغة من الناحية الصوتية الاستعمالية، إذ لم يرقَ إلى أن يكون من ضمن أصوات الفصحى أبداً، بل ظلّ ممثلاً في اللهجات، على الرغم من وروده في القراءات القرآنية الشاذة، والشعر العربي في بعض صور الأداء الشعري، ففي قوله تعالى: "قد جعل ربك تحتك سريّا"[35]، قرئ: تحتش، على الكشكشة وفقاً لما أورده النحاة، كالأشموني[36]، وفي قوله تعالى: "إنّ الله اصطفاك وطهّرَك"[37]، قرئ: اصطفاش وطهرش، على الكشكشة أيضاً[38]، ولم يورد أصحاب كتب الشواذ المعروفة هذه القراءات في كتبهم، ولعلّ السبب في هذا هو التدريج الصوتي الذي أدّى إلى نظرتهم إليها على أنها تتبع ظاهرة مرذولة، ولكن النحويين وعلماء العربية كانوا يوردونها أحياناً للاستشهاد بها على الظاهرة الصوتية[39].

2- **الجيم التي كالكاف:** تبدو هذه العملية الصوتية أوّل وهلة كالسابقة، إذ يتبادر إلى الذهن أنه لا فرق بين الكاف التي كالجيم والجيم التي كالكاف، ولكننا إذا أنعمنا النظر في تاريخ الأصوات

في اللغة العربية واللغات السامية، فسنجد أنّ تفسير الظاهرة الأخيرة في متناول اليد، إذ إنّه من السهل أنْ نقول إنّ أصوات اللغة، ومنها الجيم، كانت مفردة كلها، ثمّ تحوّلت الجيم المفردة (g) إلى الحالة المركبة عندما تدخّل فيها قانون الأصوات الحنكية الذي حوّلها إلى صوت مركّب (ğ). ولهذا، فإنّ الأصل المفرد هو أن ننطق الجيم كما ينطقه القاهريون في مصر، أو بعض اليمنيين أو بعض أهل عُمان[40]، وهذا الصوت هو صوت أقصى حنكي انفجاري مجهور[41]، وأما الكاف، فصوت أقصى حنكي انفجاري مهموس، وقد انتهى الصوت (g) في صورته المفردة من المستوى الفصيح، وانحاز إلى بعض مظاهر التباين اللهجي التي احتفظ بها التراث اللغوي، زيادة على أنّ اللغات السامية التي تنتمي العربية إلى أرومتها لا تحتفظ بغير النطق الإفرادي، ولم تصل أي لغة إلى النطق المركّب ما عدا اللغة العربية، فقد جاء في اللغة الإثيوبية ge<ra و ga<ra من معنى (جعر) أو جأر[42].

وهي في الأوغاريتية g<r[43]، وفي العبرية gā<ar[44] وفي الآرامية gé<ar[45] وكذلك في السريانية[46]، وكلها جاء بالجيم المفردة.

واستناداً إلى هذا التحليل، فإننا ننظر إلى صورة الجيم التي كالكاف على أنها هي الصورة الأصلية، وأما الصورة المركَّبة التي اتخذتها الفصحى ضمن مكوِّناتها الصوتية المعيارية، فهي صورة متحوّلة، وإن صارت الأصل استعمالاً، وأما تاريخيًّا، فالنطق الإفراديُّ هو الأصل، وقد احتفظت العربيّة ببعض الأنماط التي ظلت الجيم المفردة جزءاً من مكوِّناتها، كما في قوله تعالى: "حتى يلج الجمل في سم الخياط"[47]، فقد ورد في هذا النمط (يلج الجمل) بالجيم المفردة فيهما[48]، وعندما سئل رسول الله (صلى الله عليه وسلّم) عن الاستنجاء بالروث، رُوِي عنه أنه قال: إنه ركس[49]، وقد رويت بالكاف، لأنّ الخط العربي لم يضع رمزاً للجيم المفردة على الأرجح، وإنما قال: rigs بالجيم الخالية من التعطيش.

وفي حديث آخر: "قال له رجل: قد نُعِتَ لنا المسيح الدَّجَّال، وهو رجلُ عريض الكَبْهَةِ" أي: الجبهة، فأخرج الجيم من بين مخرجها ومخرج الكاف ، وهي لغة من لغات العرب[50]. بيد أن ابن الأثير الذي أورد هذا الحديث لم يورد العرب الذين كانوا يتكلمون بها، مما يشير إلى احتمال أن تكون صيغة اختيارية أو بديلة alternative form.

وإذا نظرنا إلى وجود الجيم التي كالكاف في اللغة العربية، نجد أنه قد تغير بفعل قانون الزامي إلى صوت آخر مختلف عنه في الصفة والمخرج، وهو صوت الجيم المركّبة، وهذا الصوت الجديد الناتج عن قانون الأصوات الحنكية هو الذي اتخذته العربية الفصحى شعاراً لها ضمن مكوِّناتها الفونيمية الصوتية، وأما الصوت الأصلي، فقد ظلَّ موجوداً على نطاق محدود في

اللهجات العربية، واستمرَّ وجودُهُ إلى يومنا هذا في بعض اللهجات، وهذا ما سوَّغَ عَدَّهُ فرعاً من الأصوات غير المستحسنة، على الرَّغم من أنَّه الأصل في النطق.

3- الجيم التي كالشين: لقد أوضحنا أن الجيم المفردة (g) قد تحوّلت إلى جيم مركّبة (ğ) بفعل قانون الأصوات الحنكية الذي ينص على أنّ الجيم المفردة من أصوات أقصى الحنك إذا وليها كسرة طويلة أو قصيرة، خالصة أو ممالة، فإنَّ هذه الكسرة تجتذبها إلى الأمام قليلاً عن طريق ما يسمى في اللغة بعملية التغوير palatalization إذ تشكّل منها صوت يجمع بين الشدّة والرخاوة، يبدأ بدال مجهورة وينتهي بشين مجهورة (صفة الجهر لمناسبة الجهر في الجيم المفردة)، مع العلم أن الصوتين اللذين يُكوِّنان الجيم المركّبة وهما الشين المجهورة (ʃ) والدال ينطقان معاً؛ لأنهما صارا بمنزلة الصوت الواحد.

وهذا الصوت المركّب، يمكن أن يتسلّط عليه قانون صوتي آخر، نطلق عليه اسم (قانون انحلال الصوت المركّب) الذي يُعْمَلُ على حلّه إلى صوتين هما المكونان له، وهما الدال والشين المجهورة، إذ يمكن أن تنطقه بعض البيئات الاستعمالية دالاً، في الوقت الذي تنطقه بيئات أخرى شيناً مجهورة[51].

ولما كانت الشين المجهورة ليست من مكوّنات الأصوات (الحروف) المعيارية للغة العربية، ولم يضع الخط العربي لها رمزاً، فقد أطلق العلماء على هذا الانحلال الصوتي مصطلح انحلال الصوت المركَّب[52]، فإذا انحلَّ إلى صوت الدال فإنه من السهل على العلماء أن يقولوا: أبدلت الجيم دالاً، والدال صوتٌ معتمدٌ رسماً ونطقاً في النظام الفصيح، وأما الشين المجهورة، فقد وُصِفت وصفاً لأنها ليست ممثلة في الخط، ولكننا نستطيع أن نقول إنها تشبه الشين التي ينطقها أهل مدينة نابلس في فلسطين في نطقهم للجيم، فتخرج منهم شديدة التعطيش.

وأما المعجم العربي، فقد رصدها على أنَّها تَغَيُّرُ الجيم إلى شين، ومن ذلك: قول العرب: شأ لعنك الله (للبعير) أي: جأ[53]، وحنشه عن الأمر وعنجه: طرده عنه[54]، ومكان شاسٍ وجاسٍ، أي: مرتفع[55]، وأرَّشَ وأرَّجَ بمعنى حمل على (أحد أو مجموعة)[56]. والمرجّح في هذه الدراسة أن يكون الانحلال قد حدث في اتّجاه الشين المجهورة لا المهموسة، ولكن إهمال رمز كتابي لها أدّى إلى وضعها ضمن مظاهر الإبدال إلى الشين.

4- الضاد الضعيفة: لقد وصف سيبويه الضاد بأنها تخرج من بين أوّل حافة اللسان وما يليها من الأضراس[57]، في حين رأى أنَّ الضاد الضعيفة تُتَكَلَّف من الجانب الأيمن، ويمكن أن تُتَكَلَّف من الجانب الأيسر، وهو أخفُّ؛ لأنها من حافة اللسان مطبقة؛ لأنّه اجتمع فيها تكلُّف الإطباق مع إزالته عن موضعه، ويجوز أن تخالط مخرج غيرها بعد خروجها، فتستطيل حين تخالط حروف اللسان

وفقاً لتعبيره[58]. والحقيقة أنّ ما يمكن أن نفهمه من هذا الوصف هو إشارته إلى تغيُّر المخرج، وهو ما يشير إليه قوله "تخالط حروف اللسان"، والأرجح أنه يقصد اللام التي تجمع بين الجانبية واللثوية، بدليل أنّنا نجد من الشعراء من يبدل منها اللام، كما في قول الراجز:

لَمَّا رأى أن لا دَعــه ولا شِبَعْ   مالَ إلى أرطاة حِقْفٍ فالطجعْ[59]

أي، فاضطجع، وهو يتكلم عن الذئب، وقد حفظ لنا المعجم أمثلة أخرى وردت بالضاد واللام، ومنها: تقيَّضَ فلان أباه، وتَقَيَّله، وذلك إذا نزع إليه في الشَّبَه[60]، وفي اللغة: رجلٌ جَلْدٌ وجضْدٌ[61]، وغيرها من الأمثلة.

ولعلّ هذه الأمثلة وغيرها مما لم تورده هذه الدراسة يثبت تغيُّراً في مخرج الضاد الأصلية الجانبية تماماً إلى الصفة الأمامية، وهذا التغير هو الذي قاد إلى (تضعيف) الضاد، وهي المرحلة الثانية التي وصلت إليه الضاد العربية التي تعدُ من أصعب الأصوات التي نعرفها في اللغات الإنسانية الطبيعية، وكان من المتوقّع أن تتغيّر إلى صوت آخر، ومع هذا التغيُّر، فقد احتفظت الضاد الضعيفة بصفتي الاحتكاك والتفخيم، وهو ما جعلها تلتقي مع (الظاء) ولعل هذا الالتقاء هو ما أنتجَ عدداً كبيراً من الأنماط التي تراوح في مكوّناتها بين الضاد والظاء، وهو ما جعل العلماء يؤلفون فيها كتباً كثيرة[62].

وقد أدى هذا الالتقاء إلى تغيُّر لغوي آخر، وهو تحوّل الضاد الضعيفة إلى صوت الضاد بصورته الحديثة، وهي الضاد الانفجارية، فالتقت مع نطق الطاء التي وصفها سيبويه بالجهر، وهو ما أدى إلى تحوُّل الطاء نفسها إلى صوت آخر كما سيأتي، ولكننا نعتقد هنا أنَّ علم الأصوات العربي كان يصف مرحلة من مراحل التغيُّر الصوتي الذي تعرّضت له الضاد لِما تشتمل عليه من الصعوبة.

5- **الصَّاد التي كالسِّين:** لا تختلف الصَّاد عن السين من حيث المخرج في شيء، فكلاهما صوت لثوي، وكلاهما صوت مهموس، والفرق الوحيد بينهما يتمثَّل في أنَّ الصاد من أصوات التفخيم، والسين صوت مرقَّق[63]، ولهذا، فإنه من المتوقع أن يتحوّل أحدهما إلى الآخر تحوُّلا ناتجاً عن الإبدال التاريخي، أو الإبدال التركيبي، ويرجّح الباحثون تحوُّل الصاد إلى سين تاريخياً أكثر من تحوُّل السين إلى صاد، بسبب إيمانهم بأثر قانون السهولة والتيسير، لأنَّ الصاد أصعب من السين لما تشتمل عليه من صفة التفخيم.

وأما الإبدال التركيبي (السياقي) فالأرجح أن تتحوّل السين بسببه إلى الصاد؛ لأنّ الصاد أقوى من السين، وتأثيرها فيها قوي، ولكنّ هذا التحوُّل التركيبي قد يصبح تاريخياً ينشأ عنه

صورتان استعماليتان، إحداهما بالسين والأخرى بالصاد، فقد جاء في اللغة: بخس عينه وبخصها إذا فقأها بإصبعه[64]، والبسطة والبصطة[65]، وبَسَقَ وبَصَقَ، وبساق الجراد: لعابه[66]، وهي أنماط يمكن أن يكون التغير التركيبي (السياقي) سبباً مقنعاً لها، ولكنها باتت أنماطاً ذات صبغة تاريخية موجودة في المعجم تحت جذرين يختلفان من حيث المكوّنات.

ولعلّ عدّ السين التي كالصاد من الأصوات غير المستحسنة في اللغة العربية ناتج عن نوع من أنواع العجمة، فالأصوات المفخّمة صعبة على الأعجمي، فيلجأ إلى ترقيقها، وأما العربيُّ الفصيحُ، فلا يعييه أمر العجمة إطلاقاً، وأما السين نفسها فهي من المكوّنات الأساسية للمستوى الفصيح، فمعيار التدريج الصوتي هنا هو معيار يتعلّق بالبنية، وإن حفظ لنا المعجم بعض الأنماط المروية عن العرب الذين تُقْبَلُ عربيتهم وترتضى.

وأما تاريخياً، فإنّ الأمر يبدو أبعد من التاريخ المنظور الذي توكأ عليه علماء العربية في أمثلتها الكثيرة، كما في السريانية التي ورد فيها ḥesnā التي تقابل كلمة (حِصْن) في العربية[67]، وفيها pasḥā بالسين، وتقابل كلمة فِصْح العربية[68]، وفي الإثيوبية الجعزية qamīṡ بالصاد، وهي كذلك في العربية، والأوغاريتية qmṡ ولكنها في السريانية: qūmūstā بالسين[69]، ويقابل كلمة (ناص) بمعنى فرّ في اللغة العربية الفعل العبري nās بالسين، كما يقابل كلمة (مراس) بمعنى الشدة والبأس في العربية الكلمة العبرية mēreṡ بالصاد[70].ولكن هذه الاستعمالات وغيرها لم تؤخذ بالاعتبار في التدريج الصوتي، ولم تؤدِّ إلى إنتاج صيغ بديلة، بل إنها لو أدّت إلى نشوء هذه الصيغ، فإنها لم تكن خاضعة للتدريج؛ لأنّ هذه اللغات لم تضع مستويات تدريجية للفصاحة.

6- **الطاء التي كالتاء**: يمكن أن تذهب هذه الدراسة إلى أنَّه من الصعب أن نجد في المعجم العربي، على سعته وإحاطته، نمطاً واحداً أبدلت فيه التاء من الطاء إبدالاً تاريخياً[71]، لأنَّ الطاء وفقاً لوصف سيبويه تفترق عن التاء افتراقاً ليس هيناً، فهما وإن كانتا من المخرج ذاته، تختلفان في التفخيم والجهر أيضاً، فالطاء صوت لثوي أسناني انفجاري مفخم مجهور، وأما التاء، فهي صوت لثوي أسناني مرقق انفجاري مجهور[72]، ومن هنا، فإنّه لو حدث التخلُّص من التفخيم، فستصير الطاء (المجهورة) دالاً، وأما الطاء المهموسة، فإننا نرجّح أن تكون هي الطاء التي تحدّث عنها سيبويه مُدَرِّجاً إياها ضمن الأصوات غير المستحسنة، أي أنها انتقلت إلى صفة الهمس مع احتفاظها بصفة التفخيم، ولو أنها فقدت التفخيم لصارت تاء خالصة.

إنَّ الواضح من وصف سيبويه للطاء بالجهر أنها كانت الصوت المعتمد في اللغة الفصحى، وأما الطاء المهموسة، فقد كانت صوتاً من بيئات لغوية لم تشتهر بالفصاحة، فقد كانوا ينطقون

الطاء مهموسة، وصفة الهمس تقرِّبها من التاء أيضاً، وأما السبب الذي دفع إلى التخلُّص من النطق المجهور للطاء، فهو نوع من التحرّك التاريخي للأصوات، فقد ذكرنا كيف سارت اللغة في طريق التخلُّص من الضاد القديمة التي وصفها سيبويه وابن جني، حتى وصلت إلى استعمال الضاد الضعيفة، وهي في صفتها الجديدة تلتقي مع الظاء كما أسلفت الدراسة، وكانت اللغة أمام خيارين: الأول منهما أن تتخلّص نهائياً من مكوِّن الضاد لأنها التقت مع الظاء، أو أن تغيّر من صفات أحدهما، فعادت على الضاد الضعيفة بالتغيير، فحولّتها إلى الضاد الحديثة الانفجارية، وهي حركات مسوّغة صوتياً، ولكن الأمر الذي حدث هو أنّ وصف الضاد الانفجارية الحديثة لا يختلف عن وصف سيبويه والقدماء للطاء (المجهورة) في أي شيء، ووجدت اللغة نفسها أمام الخيارين السابقين، فإمّا أن تتخلّص من الضاد الجديدة أو أن تتخلّص من الطاء، زيادة على إمكانية أن تتخلّص من صفة من صفات أحد الصوتين، وهو ما لجأت إليه اللغة، فتخلّصت من صفة الجهر في الطاء، مستعملة طاء مهموسة، وهي التي عدّها سيبويه وابن جني من الأصوات المرذولة، والدليل على أنّ اللغة لا تلتزم برأي النحاة، أن الأنماط البديلة أو الاختيارية التي تجمع فيها اللغة العربية بين أداء الطاء والتاء ليست قليلة، فالعرب يقولون: تَيَّخَهُ العذابُ وطَيَّخَهُ، بمعنى ألحَّ عليه[73]، وهذه البلاد تتاخم تلك وتطاخمها[74]، وحتَّ وحطَّ بمعنى نَثَرَ[75]، وغيرها كثير من الأمثلة، لم يقل المعجم العربي في نمط واحد من هذه الأنماط إنه من الأنماط التي لا تُرتضى في العربية، ولم يُطْعَنْ في واحد منها، مما يدلُّ على أن سيبويه في تدريجه لهذه الأصوات لم يكن يستقصي الأمثلة أو يقصد إلى مهاجمتها، بل كان يدرِّج المكونات الصوتية المجرّدة (المادية أو الفونتيكية).

ونحن إذا رجعنا إلى التاريخ القديم للغة العربية واللغات السامية، فلن نجد فيها أي إشارة إلى هذا التدريج، فقد ورد في السريانية: pélaṭ بالطاء[76]، بمعنى (فلت)، بالتاء في العربية، وفي العربية (قتل)، وهو نمط يقابل: qéṭal في السريانية، و qāṭal في العبرية، بالطاء فيهما[77]، والأمثلة على هذه الظاهرة كثيرة، تنفي مسألة التدريج الصرفي القائم على التدريج الصوتي، مما يعني أن سيبويه كان يحاول تنقية المكوّنات الصوتية الفصيحة فقط.

7- **الظاء التي كالثاء:** يتَّحِدُ صوتا الثاء والظاء في المخرج، إذ إنهما من الأصوات بين الأسنانية، ولكنهما يفترقان في التفخيم والجهر، فالظاء صوت مفخّم مجهور، وأما الثاء، فصوت مرقَّقٌ مهموس[78]، ويمكن النظر تاريخياً إلى الظاء بأنها صوت متطوّر عن (ثاء مهموسة) وهو ما أشار إليه بروكلمان، وموسكاتي[79].

وهو رأي قد يكون مقنعاً إذا أخذنا رأي ابن يعيش بأنّ العربية استعملت بعض الكلمات التي تشتمل على الظاء بالثاء المهموسة، نحو: ثلم في مكان (ظلم)[80]، وإذا أخذنا بعين الاعتبار استدلال المستشرقين على هذا الأصل بأنّها تحوّلت إلى صاد مهموسة في الأكادية والعبرية والإثيوبية الجعزية وبعض الأنماط العربية، وإلى طاء مهموسة في الآرامية المتأخِّرة[81]. فقد تحوّلت إلى صاد في أنماط قليلة في العربية، مثل: الشاظي والشاصي، وهو المغلوب على أمره، المقهور والمنتفخ الذي ارتفعت يداه ورجلاه[82]، ووَصِبَ على الشيء ووَظَبَ عليه، إذا واظب عليه دون انقطاع[83].

وجاء في العبرية: naṡar بمعنى (نظر)[84]، وفي الأكادية ṡeru بمعنى ظَهَرَ[85]، وسقطت الهاء أسوة بسائر الأصوات الحلقية والحنجرية.ويضاف إلى هذين الدليلين هذا التدريج الصوتي الذي اتّخذه سيبويه، عندما أورد أنّ الظاء التي كالثاء (الظاء المهموسة) هي فرع من الفروع غير المستحسنة في الاستعمال العربي عند من تُرْتَضى عربيته، وسيبويه من الثقات، ولهذا فلا بدّ أنه نُقِل إليه عن أستاذه الخليل بن أحمد الموثّق أيضاً، ومهما يكن من أمرهما، فإن معيار التدريج معيارٌ استعمالي بحت؛ لأنّ هذه الظاء لم تُسمع إلا في حالات محدودة، فلا يعني وجود الصوت في بيئة لا ترتضى عربيتها أن الصوت رديء، بل تعني أنه في بيئة لا توصف بالفصاحة وأن وجوده لا يتعدّى بعض البيئات.

8- **الباء التي كالفاء:** الباء صوت شفوي انفجاري مجهور، وينتج نتيجة إغلاق الشفتين إغلاقاً تاماً، مع إغلاق المجرى الأنفي تماماً، وتهتزُّ معه الأوتار الصوتية، ومن مخرج قريب جداً منه تخرج الفاء، فهي صوت شفوي أسناني احتكاكي مهموس، إذ إنّ التقاء الفاء مع الباء لا يتعدّى قرب المخرج فقط، وليس تماثله، ومن هنا فإننا نستبعد أن تكون الباء قد تخلت عن مخرجها واحتفظت بالجهر مثلاً، لأنّ هذا سيؤدي إلى إنتاج صوت الباء المجهورة التي تشبه نطق الصوت (v)، وهو صوت غير موجود في المنظومة السامية إلا على سبيل التلوين الصوتي أو الألوفوني، وهو أمر خاصٌ بالمجموعة السامية الشمالية الغربية (الكنعانية ولهجاتها التي ظلت حية منها اللهجة العبرية)، والآرامية ولهجاتها التي ظلت حية منها اللهجة السريانية، إذ تحتوي هاتان اللهجتان: السريانية والعبرية على ظاهرة نطلق عليها في الدراسات السامية ظاهرة الحروف ذات النطقين[86]، أو مجموعة أصوات (بجد كپت) التي تتغير فيها الأصوات الانفجارية الستة (ب ج د ك پ ت) إلى النظائر الاحتكاكية (ḇ, ġ, ḏ, ḵ, f, ṯ) إذا جاءت بعد حركة ما[87].

ولكنّ اللغة العربية ظلت بمنأى عن هذا الصوت (v) مهما كان مصدره، إلا في الكلمات الحديثة المستعارة من اللغات الغربية، في حدودٍ نادرة يغلب عليها طابع العاميات.

ولذلك لا بدّ من البحث عن تأصيل لهذا الصوت، وهو الباء التي كالفاء، فالشبه إذاً لن يكون منصبّاً على صفة الهمس، فأقرب الأصوات المتاحة ليكون (الباء التي كالفاء) هو الذي يكون قريباً من الفاء في المخرج ويتطابق معها في الهمس على أن يكون وجوده غير غريب عن العربية والساميات هو الباء المهموسة (p)، وهو صوت أصيل في اللغة السامية الأم واللغات السامية عامة، وقد ظلّ موجوداً في هذه اللغات إلى يومنا هذا، وهو الصوت الذي تحوّلَ تحوُلاً تركيبياً (سياقياً) في لغات المجموعة السامية الشمالية الغربية؛ لأنّه من أصوات المجموعة (بجد كپت) السابقة الذكر، ولم يكن تحوُّله تاريخياً مطلقاً إلا في اللغة العربية التي تحوّل فيها إلى الفاء ولم يعد موجوداً وجود أصالةٍ، بل إن ما نجده منه الآن لا يتعدّى التلوين الصوتي السياقي (التلوين الألوفوني) إذ تتحوّل الباء المجهورة إلى مهموسة إذا وقعت بين مهموسين وكانت ساكنة، وذلك كما في كلمة (سبت)، فقد وقعت التاء الساكنة بين السين والتاء، فتحوّلت إلى الباء المهموسة sapt، وكذلك في مثل: تُبْتُ إلى الله وما أشبهها.

ولذلك، فإنّ هذه الدراسة ترجّحُ أن يكون المقصود بهذه الباء التي كالفاء الصوت الأصيل (p) فقد تكون إحدى القبائل العربية قد احتفظت بهذا الصوت في سياق استعمالي معين، ورصده جامعو اللغة، فتناوله منهم سيبويه على أنه من الفروع غير المستحسنة، وإلا، فهو صوت مستحسن ويشكّل جزءاً مهماً من مكوّنات النظام الصوتي للغات السامية الأخرى، إلا إذا كان مسبوقاً بحركة طويلة أو قصيرة، خالصة أو ممالة، وعندها فإنّه يتحوّل إلى النظير الاحتكاكي، وهو الفاء.

الخلاصة:

لقد خلصت هذه الدراسة إلى بعض الاستنتاجات التي تتعلّق بموضوع التدريج الصوتي، ومنها:

- لقد كانت التفاتة سيبويه ومن تابعه في هذا الموضوع التفاتة علمية مفيدة، تمكنّا عن طريقها من الكشف عن مفهوم التغيُّر الصوتي في أصوات العربية.
- نظر العلماء العرب إلى مكوِّنات النظام الصوتي العربي نظرة تسليم مطلقة، فقد أوردوا تسعة وعشرين (حرفاً) اعتقدوا أنها مكوِّنات صوتية أصلية (فونيمية) ولذا، فقد أوردوا التغيرات الصوتية التي طرأت على ما اعتقدوا أنها أصول من قبيل الفروع، على الرغم من أن هذه

الفروع قد لا تكون متغيرة عن فونيم معيَّن، بل قد تكون نتيجة لحركات صوتية مختلفة، كما في نظرتهم إلى التفخيم والإمالة.

- لم يستعمل القدماء وعلى رأسهم سيبويه أي معيار صوتي للتدريج الصوتي، بل لجأ إلى المعايير الاستعمالية، فأي صوت يستحق أن يكون مستحسناً إذا استعمل في قراءة القرآن أو الشعر العربي، ولذلك، فإن مصطلح (لغة من ترتضى عربيته) كان بحاجة إلى توضيح، من أجل تبيان معنى الارتضاء.

- كما استعمل سيبويه وابن جني ألفاظاً تبدو قاسية للحكم على درجات الاستعمال اللغوي، من قبيل (اللغة المرذولة)، وقد تبين لهذه الدراسة أن الأمر ليس متعلقاً بالمعنى المعجمي للجذر (رذل) وما يتبعه، بل كان معياراً يصلح للحكم على الفصاحة والاستعمال اللغوي في البيئات التي قيَّدوا الفصاحة فيها.

- بعض هذه الأصوات غامض لم يورد عليه سيبويه أمثلة لتوضيحه، كما في حالة الكاف التي كالجيم، فإذا كنا قادرين على تفسير الجيم التي كالكاف، فإن تفسير الكاف التي كالجيم من الأمور التي تحتاج إلى إعمال فكر ونظر عميقين.

- صرح العلماء بالأصوات الثمانية التي عدُّوها غير مستحسنة في لغة من ترتضى عربيته، ولكنهم أعرضوا عن توضيحها أو التمثيل لها، ولا سبيل إلى معرفة شيء عنها أكثر من مسمياتها في كتب التراث اللغوي، ولكن المعاجم سجّلت لنا أمثلة عليها دون التصريح بمسمياتها.

- كثير من هذه الأصوات (المستحسنة أو غير المستحسنة) تحتاج إلى تحليل تاريخي أو مقارن للوصول إلى رأي مقنع في ماهيتها، كالجيم التي كالكاف أو الظاء التي كالثاء أو الباء التي كالفاء أو الطاء التي كالتاء، أو الضاد الضعيفة، فيما تحتاج الحالات الصوتية التي عدّها العلماء القدماء فروعاً على الأصوات الأصلية (الفونيمات) إلى درس تطوري يرصد تغيرات اللغة وحالاتها التي جعلتها تصل إليها، فهي ليست أصواتاً متغيرة، كألف الإمالة اليائية (الممالة إمالة شديدة) أو ألف التفخيم أو النون الخفيفة.

The Phonetical grading based on priority in the studies of Arab Scholars
A descriptive historical study

Yahya Ababneh, *Arabic Department, Facalty of Arts, Yarmouk University*

Abstract

This research is concerned with the idea of phonetical grading in the studies of Arab scholars, starting from Sibawayh's trial in his book; which is considered the oldest Arabic methodical trace in the field of linguistics, where he divided the characters that form the phonetic system in the Arabic language; so that consonants were divided into three parts: the first section being the standardized consonants of the formal level used in Qur'an and Arabic Poetry, The second being formal as well, but less commonly used in the formal contexts, yet accepted to be used in Qur'an and Poetry, and the third section was considered not suitable to be used in Qur'an and Poetry. This study has revealed the effect of this grading system in the development of alternative or elective forms in language.

This study aims to analyze Sibawayh's and other scholars' standards in grading the phonetical system of the Arabic language; where it uses the descriptive analytical method to reach the results.

قدم البحث للنشر في 2014/12/15 وقبل في 2015/8/18

الهوامش والإحالات

(1) ينظر في هذا: سيبويه، الكتاب، 4/431-433، وابن جني، سر صناعة الإعراب 1/46-51، وقد تابعهما والوصف الوارد فيه، معظم علماء العربية الذين جاءوا بعدهما دون وجود أي خروج يمكن أن يسجّل عليه.

(2) ينظر: كمال بشر، علم اللغة العام، الأصوات العربية، ص109، وقد وصفها بأنّها صوت لهويٌّ مهموس، وهو شعار العربية الفصحى بصورتها الحالية.

(3) لقد وقع خلاف كبير بين سيبويه والمحدثين في وصف صوت الضاد، فبينما ذكر سيبويه أنّ الضاد صوت رخو (احتكاكي) ذو مخرج جانبي (من أوّل حافة اللسان وما يليها من الأضراس، مفخّمٌ مجهور، نجد أنّ المحدثين يتحدّثون عن النظير المفخّم لصوت الدال، يُنظر: سيبويه، الكتاب، 432/4، وكمال بشر، علم اللغة العام، الأصوات العربية، ص100-104.

(4) ينظر: سيبويه، الكتاب، 432/4، وابن جني، سر صناعة الإعراب، 46/1.

(5) ابن جني، سر صناعة الإعراب، 50/1.

(6) ينظر: سيبويه، الكتاب، 432/4.

(7) ينظر: ابن جني، سر صناعة الإعراب، 46/1.

(8) كمال بشر، علم اللغة العام، الأصوات العربية، ص130/، وينظر:

Al-Ani, Arabic Phonology, P. 31, ShireenYasin, The VeralisedConsonantsof Arabic, P. 18.

(9) ابن جني، سر صناعة الإعراب 48/1.

(10)ابن الجزري، النشر في القراءات العشر 201/1.

(11) ابن منظور، لسان العرب (غنن) 315/13.

(12) سيبويه، الكتاب، 541/3-542.

(13) سيبويه، الكتاب 548/3.

(14) عبدالله الكناعنة، أثر الحركة المزدوجة في بنية الكلمة العربية، ص10.

(15) ينظر في موضوع همزة بين بين: عبدالصبور شاهين، القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، ص105، وقد ذكر هاهنا أنه أجرى تجارب على جهاز السبكتوجراف أثبت فيها أنّ حالة همزة بين بين ليست سوى حركة، وينظر: فوزي الشايب، أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة، ص114.

(16) ينظر أمثلة على هذا النوع من الإمالة: يحيى عبابنة، القراءات القرآنية، رؤى لغوية معاصرة، 58-59.

(17) عبدالله الكناعنة، أثر الحركة المزدوجة في بنية الكلمة العربية، ص56.

(18) سورة آل عمران/133.

(19) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 75/3.

(20) ابن جني، سر صناعة الإعراب 50/1.

(21) سيبويه، الكتاب، 432/4.

(22) غانم قدوري الحمد، رسم المصحف، دراسة لغوية تاريخية، اللجنة الوطنية للاحتفال بالقرن الخامس عشر الهجري، بغداد، 1982، ص330.

(23) ابن جني، سرّ صناعة الإعراب، 50/1.

(24) رمضان عبدالتواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص295

(25) سيبويه، الكتاب، 432/4، ابن جني، سرّ صناعة الإعراب، 50/1.

(26) سورة الفاتحة/6.

(27) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 25/1، وأبو طاهر الأندلسي، العنوان في القراءات السبع 67/1، ومكي ابن أبي طالب، الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، 34/1.

(28) ابن جني، سرّ صناعة الإعراب 50/1.

(29) سيبويه، الكتاب 432/4.

(30) ابن جني، سرّ صناعة الإعراب 46/1.

(31) سيبويه، الكتاب، 432/4، وينظر: كمال بشر، علم اللغة العام، الأصوات العربية، ص126.

(32) ينظر في مثل هذا التحوُّل: يحيى عبابنة، دراسات في فقه اللغة والفنولوجيا العربية، ص205.

(33) ماريو باي، أسس علم اللغة، ص144.

(34) آمنة الزعبي، التغير التاريخي للأصوات في اللغة العربية واللغات السامية، ص66.

(35) سورة مريم/24.

(36) الأشموني، شرح الأشموني، 282/2، ضمن كتاب حاشية الصبان على شرح الأشموني.

(37) سورة آل عمران/42.

(38) أحمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، 362/1.

(39) ابن يعيش، شرح المفصل، 49/9، ولم يوردها ابن جني في المحتسب، أو العكبري في إعراب القراءات الشواذ، أو ابن خالويه في المختصر في شواذ القرآن على الرغم من أنّ شهرة هذه القراءات كانت كبيرة جداً.

(40) إسماعيل عمايرة، بحوث في الاستشراق واللغة، ص204.

(41) ينظر الحديث عن وصف الجيم: كمال بشر، علم اللغة العام، الأصوات العربية، ص90.

(42) Leslau, A Comparative Dictionary of Ge<ez, P. 175.

(43) Leslau, A Comparative Dictionary of Ge<ez, P. 175.

(44) Gesenius, Hebrew and English Lexicon of the Old Testament, P. 172.

(45) Koehler and Baumgartner, The Hebrew and Aramaic Lexicon of the Old Testsment, P. 199.

(46) Brockelmann, Lexicon Syriacum, P. 128, Payne Smith, A Compendious Syriac Dictionary, P. 76, Costaz, English Syriac Dictionary, P. 52.

(47) سورة الأعراف/40.

(48) أورد أحمد مختار عمر هذا النمط في: دراسة الصوت اللغوي، ص336.

(49) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، 259/2، وينظر مثل هذا التعليل: كمال بشر، علم اللغة العام، الأصوات العربية، ص108.

(50) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، 145/1.

(51) رمضان عبدالتواب، التطوُّر اللغوي، مظاهره وعلله وقوانينه، ص132-133.

(52) رمضان عبدالتواب، التطوُّر اللغوي، مظاهرة وعلله وقوانينه، ص134.

(53) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، 436/2.

(54) ابن منظور، لسان العرب (حنش) 289/6.

(55) الزجاجي، الإبدال والمعاقبة والنظائر، ص58.

(56) أبو عمرو الشيباني، الجيم، 60/1.

(57) سيبويه، الكتاب، 433/4.

(58) سيبويه، الكتاب، 432/4.

(59) ابن جني، سرّ صناعة الإعراب، 321/1، وابن يعيش، شرح المفصّل 45/10، والشاهد لمنظور بن مرثد الأسدي.

(60) أبو الطيب اللغوي، الإبدال، 277،2، وابن منظور، لسان العرب (قيض) 225/7.

(61) أبو الطيب اللغوي، الإبدال 278/2.

(62) ومنها: الفرق بين الضاد والظاء للزنجاني، ومختصر في الفرق بين الضاد والظاء لمحمد بن نشوان، والارتضاء بين الفرق بين الضاد والظاء لأبي حيان الأندلسي، والفرق بين الضاد والظاء للصاحب بن عبّاد، وزينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء لأبي البركات بن الأنباري، والضاد والظاء لمحمد بن سهيل النحوي، والاعتضاد في الفرق بين الظاء والضاد لابن مالك الأندلسي، وغيرها كثير.

(63) سيبويه، الكتاب، 433/4-434، وينظر في وصفهما: كمال بشر، علم اللغة العام، الأصوات العربية، ص120، ويُنظر أيضاً:

Roach, English Phonetics and Phonology, A Practical Course, P. 39.

(64) أبو الطيب اللغوي، الإبدال، 176/2.

(65) ابن منظور، لسان العرب (بسط) 260/7، و(بصط) 261/7..

(66) الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، (بصق) 69/5.

(67) Costaz, English Syriac Dictionary, P. 112.

(68) Costaz, English Syriac Dictionary, P. 235.

(69) Leslau, Comparative Dictionary of Ge<ez, P. 16.

(70) ربحي كمال، الإبدال في ضوء اللغات السامية، ص18، 124.

(71) ولكننا سنجد فيها عددا طيباً من الأنماط التي حدث فيها إبدال سياقي بين الصوتين، وبخاصة في الأنماط االتي تتبع صيغة (افتعل) في الجذور التي تكوِّن الطاء فاء الجذر فيها.

(72) سيبويه، الكتاب 432/4.

(73) ابن منظور، لسان العرب (توخ) 10/3.

(74) ابن منظور، لسان العرب (تخم) 64/12، 65.

(75) ابن منظور، لسان العرب (حطط) 275/7/3، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر 402/1.

(76) Costaz, English Syriac Dictionary, P. 277.

(77) Costaz, English Syriac Dictionary, P. 316, Gesenius, A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament, P. 881.

(78) صلاح الدين حسنين، المدخل إلى علم الأصوات، دراسة مقارنة، ص121-122.

(79) بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص39، وينظر:

Moscati, (et al), An Introduction to the Comparative Grammar of the Semitic Languages, Phonology and Morphology, P. 28.

(80) ابن يعيش، شرح المفصّل، 10/

(81) بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص39، وينظر:

Moscati, (et al), An Introduction to the Comparative Grammar of the Semitic Languages, Phonology and Morphology, P. 28.

(82) ابن منظور، لسان العرب (شصا) 432/14.

(83) أبو الطيب اللغوي، الإبدال، 256/2، هوامش المحقق.

(84) Gesenius, A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament, P. 662.

(85) Von Soden, AkkadischesHandwoterbuch, 3/1093.

(86) محمد بدر، الكنز في قواعد اللغة العبرية، ص60.

(87) رمضان عبدالتواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص219 وإسماعيل عمايرة، بحوث في الاستشراق واللغة، ص172.

المراجع

- المراجع العربية

ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

أحمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1983.

أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، 1991.

إسماعيل عمايرة، بحوث في الاستشراق واللغة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ودار البشير، عمان، 1996.

الأشموني، شرح الأشموني، ضمن كتاب حاشية الصبان على شرح الأشموني، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، طبعة حجرية، (د.ت).

آمنة الزعبي، التغير التاريخي للأصوات في اللغة العربية واللغات السامية/ دار الكتاب الثقافي، إربد، 2005.

بروكلمان، فقه اللغات السامية، ترجمة رمضان عبدالتواب، جامعة الرياض، الرياض، 1977.

ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، نشره علي الضبّاع، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت (د.ت).

ابن جني، أبو الفتح، سر صناعة الإعراب، تحقيق حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، 1985.

أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، دار الفكر، بيروت، مصوّر عن طبعة دار السعادة، القاهرة، 1328هـ.

الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق المخزومي والسامرائي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1988.

رمضان عبدالتواب، التطوُّر اللغوي، مظاهره وعلله وقوانينه، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1990.

ربحي كمال، الإبدال في ضوء اللغات السامية، دراسة مقارنة، جامعة بيروت العربية، بيروت، 1980.

رمضان عبدالتواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1985.

الزجاجي، الإبدال والمعاقبة والنظائر، تحقيق عز الدين التنوخي، دار صادر، بيروت، 1993.

سيبويه، الكتاب، تحقيق عبدالسلام هارون، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

صلاح الدين حسنين، المدخل إلى علم الأصوات، دراسة مقارنة، دار الاتحاد العربي، القاهرة، 1981.

أبو طاهر الأندلسي، العنوان في القراءات السبع، تحقيق زهير زاهد وزميله، عالم الكتب، بيروت، 1985.

أبو الطيب اللغوي، الإبدال، تحقيق عز الدين التنوخي، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، 1960.

عبدالصبور شاهين، القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ت).

عبدالله الكناعنة، أثر الحركة المزدوجة في بنية الكلمة العربية، منشورات وزارة الثقافة، عمان، 1997.

أبو عمرو الشيباني، كتاب الجيم، تحقيق إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، القاهرة، 1974.

غانم قدوري الحمد، رسم المصحف، دراسة لغوية تاريخية، بغداد، 1982.

فوزي الشايب، أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة، عالم الكتب الحديث، إربد، 2004.

كمال بشر، علم اللغة العام، الأصوات العربية، مكتبة الشباب، القاهرة، 1980.

ماريو باي، أسس علم اللغة، ترجمه إلى العربية أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، 1987.

محمد بدر، الكنز في قواعد اللغة العبرية، المطبعة التجارية الكبرى، القاهرة، 1926.

مكي بن أبي طالب، الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، تحقيق محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981.

ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1955.

يحيى عبابنة، دراسات في فقه اللغة والفنولوجيا العربية، دار الشروق، عمان، 2000.

يحيى عبابنة، القراءات القرآنية، رؤى لغوية معاصرة، دار الكتاب الثقافي، إربد، 2014.

ابن يعيش، شرح المفصل، مكتبة المتنبي بالقاهرة، (د.ت)

- المراجع باللغات غير العربية:

Al-Ani, Arabic Phonology, Accoustical and Physiological Investigation, Indiana University, Indiana, 1970.

Brockelmann, Lexicon Syriacum, HalisSaxonum, 1928.

Costaz, English Syriac Dictionary, ImprimirieCatholeque, Beyrouth, 1980.

Gesenius, Hebrew and English Lexicon of the Old Testament, Translated by; Brown, Driver and Briggs, Clarendon Press, Oxford, 1979.

Koehler and Baumgartner, The Hebrew and Aramaic Lexicon of the Old Testsment, E.J. Brill, Leiden, New York, Koln, 1994.

Leslau, A Comparative Dictionary of Ge<ez, Comparative Dictionary og Ge<ez, (Classical Ethiopic), Otto Harrassowitz, Wiesbaden, 1987.

Moscati, (et al), An Introduction to the Comparative Grammar of the Semitic Languages, Phonology and Morphology, Otto Harrassowitz, Wiesbaden, 1969.

Payne Smith, A Compendious Syriac Dictionary, Clarendon Press, Oxford, 1985.

Roach, English Phonetics and Phonology, A Practical Course, Cambridge University Press, Cambridge, 1987.

ShireenYasin, The VeralisedConsonantsof Arabic,1982.

Von Soden, AkkadischesHandwoterbuch, Otto Harrassowitz, Wiesbaden, 1981-1985.

ملحق (جدول بالرموز الصوتية المستعملة)

الهمزة	>	الطاء	ṭ
الباء	b	الظاء	ż
التاء	t	العين	<
الثاء	ṯ	الغين	ġ
الجيم العربية	ğ	الفاء	f
الحاء	ḥ	القاف	q
الخاء	ẖ	الكاف	k
الدال	d	اللام	l
الذال	ḏ	الميم	m
الراء	r	النون	n
الزاي	z	الهاء	h
السين	s	الواو	w
الشين	š	الياء	y
الصاد	ṡ	الجيم المفردة (الساميّة)	g
الضاد	ḍ	الشين المجهورة	ʃ
الفتحة القصيرة	a	الفتحة الطويلة	ā
الكسرة الطويلة الممالة	ē	الضمة القصيرة الخالصة	u
الضمة الطويلة الخالصة	ū	الضمة الطويلة الممالة	ō
الكسرة القصيرة الخالصة	i	الكسرة الطويلة الخالصة	ī